فصل من رواية

المضلع المرصع بالنجوم

كاتب ياسين

.... ليس في الامر أهمية ؛

انه جزائري

يعمل كثيرا

ولا ياكل شيئا ....

نحن نحمي المدائن والمرافىء . ونقدم الهداة الى الاجيال الجديدة . نقد حملنا الاخشاب والحجارة والقمح ؛ وصمدنا في وجه الغزاة . نضل في المهاوي ، تحمينا حكمة بغالنا . ما من عدو تسرب الى هذه الاراضي الا واصطدم بتكتلاتنا ، وانهار أمام تاويلاتنا الجغرافية المكتملة . اننا نسير وفقا للقوانين دون أن نعرفها . ولكن ، من ذا الذي يتسلم غلالنا على ارصفة المرافىء ؛ وحرصا منا على عدم اغاظة أسلافنا . بلغ الامر بنا أن صفقنا لانتصارات الميكانيكا . فعلا ، ان أهل العلم مدينون بحيائهم لتلك الصفات الرائعة التي تمتاز بها طبقتنا المحتقرة على الرغم من انهم نسونا . نحن الذين نخشى اذا ما كففنا عن تكريمهم . ان تسحقهم آلاتهم . أما عن الفنانين . فنحن لم نشاهد أحدا . اننا نعلم انهم موجودون . فهل يعلمون بأننا احياء ؟! أيها المسافر المضطهد . لتكن ما شئت ؛ فانت رب الفيافي والغابات . كان الملاحظون ياتون كل سنة ليقرعوا بابك مصحوبين بالمتواطئين معهم أو مقتفين بآثارهم . أتراهم كانوا ياتون للحج أو لارتشاف الشاي تحت اشجار البلوط ؟ في كل مرة ، كانت احدى بناتهم تمنح نفسها سرا لكي نصلح بينك وبين ذويها . أما أنت فكنت تبدد زوارك بمشاريعك المهولة . أما كنت تريد خوض الحرب ضد الغزاة وتواجههم بأفكارك المبهمة ؟ « حافظوا على الغلال. اذا بقيتم في هذا البلد » . ثم انك أمام فضيحة المفتي دعوت مواكبك الطفولية الى غزوة جنونية لا ترحم : « لننظر اذا ما كانت ضحايانا القادمة تتضرع الينا ، واذا ما كان يتعين علينا أن نعلمها فضائلنا » . المأساة بالنسبة لكل ما هو جامد تكمن في معانقة هذا الظل المتجمع . انه الارق . شفاه ندية تتجاذب فيما بينها تحت تهديد الزمن . القبيلة ، الحاضرة لن تكون لهما الا جهالات مصطنعة ، سوف ينفصل أحدنا عن الآخر بأمر من المؤسس حالما يحمر الحديد . هيكل لفظي يصطخب حين قدوم الدخيلة ، بذوبان مفاجىء ، وفي السماور يرتسم رمز بارز للعدسة المقابلة : ان طريق الدخيلة مغطى بخطوات غير متوقعة ! انها في الحمام ، ملاك من البشرة التي يمكن ملامستها ، مطر من الدم المستكين . كل رغبة تتبدد في ذلك التخدير الذي تقع مخلوقاتنا المفضلة تحت وطأته ، تلك المخلوقات الكثيرة الحركة . اننا نظل حفاريها الحائرين السريعين . النملتان تتصارعان . انهم يحولون الانسان الى مجرد شيء ، ويرفعونه خارج ذاته ، ينقلونه نحو جنون غريب لا يمكن أن يكون الا حلما. غير ان هذيانا متعدد الادمغة يستولي على كل الاختلافات

لكي يشير الى طريق المقبرة قبل الاوان والى المستشفى أو الى الثكنة . لكان هذه الطرق لم تكن معروفة من قبل . لكانه لا توجد طرق أخرى نبحث عنها في سرائرنا بعناد هؤلاء الذين يمشون في النوم ولا يريدون الرجوع عن خطواتهم . كانهم يخشون الاصطدام باللغز الذي تخبأ فيه الوهن الاول ، وتبخر كله أمام موكب الوقائع القاسي . لن تكون قفزة عجيبة بل هزة بقة متيقظة دائما وأبدا . لكأن خطط تراجعنا تشكك في طبيعة الدب الذي ينطوي على مشاكله . ما أن تهب الريح حتى يعد الدببة العدة لشتائهم المرير . انهم ينسون فيه الاغنية الهائلة التي تنشدها أسراب النحل ، ويصيرون جنونيين بعد هذيانهم المتطرف .

انها بداية الشتاء أو أواسطه . لعله وداع الربيع. ها هو العشب الرديء يبدو في آخر المطاف . لنذهب الى الاصطبل . سوف نحرق صخورك الصغيرة المعطرة. تم سنوارفك هذا المساء وسوف أذهب لاحدث البؤساء عن جمالك بكلمات مبهمة : « أن أنا أردت تسديد الطعنة اليها عند خروجها من الحمام ، فالافضل لي أن أقبل الافعى من لسانها » .

يبدو لي انني عثرت عليك بأعجوبة وأنت لم تنمائلي بعد الشفاء من شكوكك ، وكأنك خائفة من الذي يؤجل دوما بحكم الغرور . وهل في الامر من حيلة ؟ لنفرق في الحب عن طريق الحيلة . لنهرب حتى نستعيد الامل . هوذا الشباب يفرر بنا ثانية . انني أنسى تمجيد العاشقة حتى انها لتبكي . انها تصر على أن تكره الثورة. أخذ رأسها المشرق : أحترق بزيتك الثقيل أبدا ، لا تنسي انني أحمل فانوسا هشا . لا تكوني معبودة بدون ايمان !

انها لعزلة مستكينة ، تلك الوحدة التي تجمع اللحظات كلها وحيث تخلي النفوس بينها وبين أمورها . هوذا صداها يتردد : « اخلع من قلبك هذه الجمرة المنقدة بفضل النسيان الذي ينزلق من صلب الليالي » .

كنت في الحلم مليئة بالرحمة ، وكان دماغي مخلوعا ، وكنت تنفخين حميتك في عروقي ، وتئنين باوجاعك ، وكنت قد وجدتك وأنت مسافرة . غير انني كنت ذاهبا في رحلة . ونصيحتي بألا اذهل عن نفسي. لقد اعددت لي الزاد ، ولم تكوني تريدين لي أن أحيا بالحب .

كانت السفينة توشك أن ترفع المرساة . وكنا دافئين وخائفين بكل تأكيد . ووعدت بأن أجيئك بشيء رمزي . كنا واقفين . وكانت عيناك تطرفان . لعلك ظننت نفسك بطلة . والواقع اننا كنا كذلك . وبعد الحلم تغنيت بأصولك المشرقية . ولعل المصرية التي ضبطت رقعاتك كانت امرأة معصومة ومقتدرة على فن تحريك العيون الكبيرة .

انت في حاجة الى ذلك السكون الذي يبكي الضفادع . والى ضوء القمر المنداح حتى تستطيعي السير دون أن تسحقي أي مخلوق فضولي . آه لهذه الرغبة الجارفة التي تدفعك على بلبلة حياتك بكلمات أنقد أسرارها على التوالي . ذلك لان جمالك الذي تجمد في عالم الاسرار ان هو الا التهديد نفسه !

لقد لجات الى أكثر من أسطورة حتى لا نضيع شيئا من الملحمة التي كنا سنعيشها . في البداية كان التفكيك ، واتضح لي ان رأسك صغير ، وقسماتك ذات دقة غير محتملة . وجعلت من رأسك شيئا ثمينا . وهكذا تركت أنظارك تهشمني خوفا من أن يغير الموكب التافه ألوانها وبهرجتها . واصبت بجروح بعيدة الغور في شتى الاتجاهات . وكنت تبتعدين دائما وأبدا في البحر العكر وسط أرضية عنيفة . لم يكن الامر الا حلما في حلم . المرأة التي كانت تنأى عنا لم تكن تشبهك كثيرا . « هاك جسدي في شكل نجمة بحرية ، وهاك عيني المعتمتين ، والملح المترسب في لساني » .

وسرعان ما اخطرتني بأنها مريضة . سألتها : من أين جاءك هذا المرض ؟

— من ساحر أكرهه . انني متمسكة بك .

وانطلقت في الانين .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد . وأحسست بعد طويل وقت أن ما يعترض طريقي انما هو الجزء الاكبر منها ، وانه لن يكون في وسعي أبدا ان أحمله معي . وحتى وهي بالقرب مني كانت تصر على أن تقتات من دمي وتضع يدها في دماغي بطريقة مخادعة ، وتظن انها تداعبني .

احيانا ، ألفت الى الوراء على طريقة الحيوانات الشاردة لكي أبت الرعب فيها . وأحدق حينذاك في رأسها البث وهو يخرج من عيني ، الا ان مثل هذه المشاهد تدفعني على الاغراق في العبادة . وعلى عتبة الدهاليز التي تبهر العينين ، أسير مع هذه التي تعقد الخطوات والروائح ، الا انني أشعر بمرارة التيه مع الاسف . أحرقي الجبل ان شئت وتأمليه ! يا لها من حمية مسمومة القفزات ! انها تخرج من الحمام حيث يتبخر عطر القبرص ويذوب على الحجر المبلط ، وترتعش يداي حين أريد فتح الصندوق للساحرة . ان لها كرات العدو ، تضحك لي ، ثم تعاود الهدم ، وهي ان لم تفعل ذلك . فانها تختلط بصديقاتها رغبة منها في اضاعة كل شيء حتى انني أغيب عنها .

حين كنت أغادر غرفتها ، وضعت يدي على سور البحر . فيدفعني المرفأ والسفن على الضحك . وجاءت راكضة فاستقبلتها بقبضتي . لست أدري أين أهرب هذه المرة ، اين انهي هذا الفراغ الدنيوي . الساعة

الخامسة صباحا . ليلة حزينة . ساعة جدارية كاملة افرغت نفسها في المدينة الصماء . أواه . لاهرب في نهاية الامر . لأضطجع ! عربات تطلق علينا ملأى بالخمر والتبغ . يبدو اننا سنغرق بنحيبنا هذا كل صبرنا . انها تشرب قليلا ولا تحسن الشرب . لست آسف لشيء الا لهدوئها . والهواء أقتل من البحر . ليمونة تستقر على أطراف أسنانها ، انها تهرب في قارب نحاسي ، شعرها بين أسنانها . يا لهـا من أنثى ذات شعـر ساحق ! ضحكاتها تسقط في الماء بشكل مفضوح . وأرى سمهـا خلال السقطة وهو يسيل فوق الاعشاب البحرية حتى أعماق الوادي . ألا انها تلحق بي بالسرعة نفسها . بهذه الظاهرة الرائعة نفسها. السماء السريعة تحرق السطوح. وأتقهقر مرتاعا . وأصير مجنونا لانني شربت مثل هـذه الكمية الضئيلة من الكحول الممزوج بالليمون .

.... امرأة واحدة تشغل بالنا
غيابها يجمعنا
وحضورها يفرقنا ...

.... انني لا أكف عن هدم مقبرتي
حتى لا أنتقم لجرحي الوحيد
وحتى اغيب دون أن يتيه معي أي انسان
في كل يوم أشعر باقتراب النهاية
عندما يخفق قلبي تلك الخفقة .
انني أخفي خسائرنا
أمام وجه العدو
مع انني لست ميتا ولا مقتولا
لقد أطلقت على جرائمنا
أفاعي نبيلة
ولست ادري اية حمية
تبددنا .
المهم في الامر كله
هو اننا تخلصنا
من وطأة أن نكون ....

.... الدم يستعيد جذوره
أجل . لقد نسينا ذلك
غير ان أرضنا عادت الى طفولتها
هي ذي حميتها تتقد من جديد
ـ أتريد أن أعلمك النحو أم الشعر ؟
ـ الشعر ..
ـ أم انك تريد الاثنين معا ؟
« السبع يبقى سبعا
وان فقد أنيابه
والكلب يبقى كلبا
وان تربى بين الآساد » .
ـ كل الذين يحفظون هذا المقطع الشعري سباع.
ـ فأنا سبع اذن !

عندما سكر والدي واستزاده صديقـه القاضي . أجابه شعرا ؛ وأورد له الكنوز المجهولة والمقدمات الكامنة وراء الركام . وما أسرع ما رجع القاضي الى الحانة لكي يتدارك نقصه . قال والدي :

ـ السبع الحقيقي لا يمكن أن يكـون الا سكران . انه سكران بطبيعته ...

ترجمة : مرزاق بقطاش